إنجى أفلاطون

«كثيرا ما كنت أحضر حفلات الأميرة شويكار (لزوجة الأولى للملك فؤاد) فى قصر محمد على باشا الكبير فى شبرا، كانت حفلات أرستقراطية جدا، صاخبة جدا، تشبه حفلات القصور القيصرية فى روسيا وفرنسا، الفتيات يخطرن بفساتين باهرة وسط شبان أرستقراطيين، كنت أرى الترف والبذخ وتفاهة الشبان فأشعر بالقرف».

إنجى أفلاطون

(مذكرات مخطوطة)

الاسم الحقيقى للجد هو حسن الكاشف أحد طلبة المدرسة العسكرية فى عهد محمد على باشا، سمع محمد على أن زملاء حسن يسمونه «أفلاطون» بسبب كثرة أسئلته ورغبته فى الجدل والنقاش، فقال: «لا بأس أن يكون لدينا نحن أيضا أفلاطون»، وبعد هذا النطق السامى أصبح أفلاطون اسما إجباريا وبعدها حصل على الباشوية، فقد أصبح أحد قادة الجيش البارزين. الأسرة أرستقراطية فى أعلى درجات الأرستقراطية، فالأب سليل أفلاطون تعلم فى جامعات سويسرا وإنجلترا وتخصص فى علم الحشرات وأصبح عميدا لكلية العلوم، والأم صالحة هانم اخترقت جدار الوهم الأرستقراطى الخامل وأصبحت أشهر مصممة أزياء فى مصر، فى البيت الجميع يتكلمون الفرنسية، ومجرد كلمات عربية قليلة للتخاطب مع الخدم.

وترسل الطفلة إنجى إلى مدرسة مخصصة للبنات الأرستقراطيات «راهبات مصر الجديدة»، الدراسة بالفرنسية والتعاليم متزمتة بصورة غير معقولة، فممنوع على الفتاة أن تنظر إلى نفسها فى المرآة طويلا، بل ممنوع عليها أن تنظر إلى جسدها؛ ولهذا يتعين عليها أن تستحم وهى تلبس جلبابا مخصصا لذلك، وممنوع قراءة الروايات أو أى كتب غير الكتب المدرسية.. لا صداقة بين التلميذات.. وقائمة الممنوعات طويلة.

ومنذ البداية تتمرد إنجى وتحاول،، على الأقل، أن تقيم علاقة صداقة مع التلميذات لكن أعين الراهبات تتعقبها حتى تضبط وهى تقرأ رواية «الذئب الأبيض» لجاك لندن، وتحاكم أمام مجلس من الراهبات وتتلقى إنذارا بالفصل، لكن إنجى تواصل تمردها حتى تصل إلى سن الثانية عشرة فلا تحتملها المدرسة، وتستدعى رئيسة الراهبات «بارتلو» صالحة هانم لتقول لها فى أسى إنها مضطرة لفصل إنجى من المدرسة «لأنها يركبها شيطان»، وقالت فى أسى «أخشى أن تصبح ابنتك خطرا على المجتمع»، ولا مفر أمام الأسرة، فلكى تكمل إنجى تعليمها لا توجد مدرسة أرستقراطية أخرى سوى الليسيه، وهكذا من قمة التزمت إلى قمة التحرر، وتحكى إنجى فى مذكراتها لتصف حالها فى المدرسة الجديدة «كنت كسمكة عادت طليقة إلى بحرها».

لكن للأرستقراطية طقوسها، فلا بد للبنت أن تتعلم العزف على البيانو أو الرسم، أو هما معا، وتستأجر لها الأسرة مدرساً للرسم مقابل جنيهين فى الشهر، وتكون نقطة التحول الحاسمة فى حياة الفتاة الأرستقراطية، فالمدرس هو كامل التلمسانى، أحد رواد بيت الفن وأحد مؤسسى جماعة «الفن والحرية»، تلك الجماعة التى كانت تطلق فى نهايات ثلاثينيات القرن الماضى شعار «الفن معمل بارود». كان التلمسانى فنانا رائعا، لكنه كان فقيرا جدا، فقبل أن يعلم هذه الفتاة الأرستقراطية على مضض.

وتقول إنجى فى حوارى معها: «قال لى فيما بعد إنه أتى إلى بيتنا يائسا مفزوعا لأنه مضطر لأن يبيع فنه لأرستقراطية فاشلة تريد فقط أن تضيع وقتها فى التباهى بأنها تتعلم الرسم»، لكن التلمسانى لا يلبث أن يكتشف بذرة التمرد فى هذا العمق الأرستقراطى، فمضى يعلمها ما فوق الرسم، فتح لها نافذة واسعة وممتعة عن تاريخ الفنون والحضارات والعلم ودور الفن فى الحياة، وفتح لها نافذة على مصر الحقيقية، مصر التى لم تكن تعرفها، وتضحك إنجى فى حوارها معى: «باختصار.. بجنيهين فى الشهر استطعت أن أصبح إنسانة وفنانة وتقدمية، طلب منى التلمسانى أن أنسى كل القواعد المدرسية للرسم، وأن أرسم كما أريد.. ورسمت وكانت لوحاتى الأولى صاخبة: فتاة تحاول الهرب من لهيب النار والثعابين، ولوحة أخرى لفتاة تجرى هاربة فوق الصخور المحاطة بأمواج عاصفة بينما يطاردها طائر متوحش.. لقد أزاح التلمسانى عنى حجرا ثقيلا، وأزاح من أمامى سدودا عديدة كانت تخنق تفكيرى». وهكذا يتفجر الفن متمردا، ويتحول التمرد فى الفن

إلى تمرد على المجتمع.. ألم يكن شعار «الفن والحرية» هو «الفن معمل بارود؟»، وتقول إنجي: «اصطحبنى التلمسانى إلى القاهرة القديمة لأرى عبق البسطاء ورائحة الفقراء، وهناك التقيت فى «بيت الفن» عشرات من الشعراء والرسامين. ومن التمرد إلى الاشتراكية ومنها إلى الانتماء التنظيمى، فالفتاة كانت أكثر ذكاء من أساتذتها، فقد اكتشفت أن التمرد الفردى لا يكفى، وأن الرسم مهما تمرد لا يكفى، وإنما العمل المنظم هو الأساس»

وتقول فى مذكراتها: «لقد زاد حماسى واقتناعى بالاشتراكية العلمية لتركيزها على ارتباط التحرر الوطنى بالتحرر الاجتماعى وبتحرير المرأة وبالعدل والمساواة»، وتقول فى حوارها معى: «لقد سئمت ثرثرة المثقفين المعزولين وقررت – وبوعى – الانتقال طوعا من معسكر الأغنياء إلى معسكر الفقراء»، وبعد أن حصلت وهى فى الثامنة عشرة على الثانوية العامة عرضت عليها الأسرة أن تسافر إلى فرنسا لتكمل تعليمها، فرفضت، وتقول: «كنت مشتاقة إلى أن أتمصر؛ أن أتكلم العربية أن أعيش بعيدا عن الغش الأرستقراطى، وعملت مدرسة رسم فى مدرسة الليسيه، وانضممت فى عام ١٩٤٤ لمنظمة ايسكرا». كانت لم تزل تتلعثم فى الحديث بالعربية فكلفت المنظمة الشاعر فؤاد حداد أن يعلمها العربية، وانفجرت ضاحكة وهى تحكى لى كيف أنها كانت تقرأ أمامه فقرأت كلمة «الهوى» وفسرتها على أنها الهواء فغضب فؤاد حداد وقال لها: «هو انتى محبتيش أبدا بالعربى؟»، لكن ثمة حواجز أخرى هى الملابس الأرستقراطية التى تفزع البسطاء وقتها، ورويدا رويدا قادها النضال نحو التمصير.. فعاشت بامتنان فى أحضان البسطاء، وتنشط إنجى فى «دار الأبحاث العلمية» و«لجنة نشر الثقافة الحديثة» وتنضم لجمعية الشابات المسيحيات و«رابطة فتيات الجامعة والمعاهد» و«اللجنة الوطنية للطلبة والعمال»، ثم حادثة أخرى مثيرة للضحك، كانت صالحة هانم وإنجى مسافرتين إلى باريس (يوليو ١٩٤٦) وفى الإسكندرية كان فى وداعهما إسماعيل باشا صدقى رئيس الوزراء، وبعدها بأسبوعين صدر أمر بالقبض على إنجى وكان «صدقى» هو صاحب القرار. البوليس ذهب ولم يجد أحدا بالمنزل فأغلق دون حصافة الأبواب بالشمع الأحمر، واهتزت هامات كبيرة لغضب صالحة هانم واضطر صدقى للاعتذار.

ومن باريس تسافر إنجى إلى براغ لتشارك جمال غالى فى تمثيل مصر فى مؤتمر اتحاد الطلاب العالمى، وفى عام ١٩٥٠ تعمل صحفية فى «المصرى» لتحرر بابا بعنوان

«المرأة نصف المجتمع»، وفى ١٩٥١ تشارك فى اللجنة النسائية لدعم الكفاح المسلح وفى تأسيس حركة «أنصار السلام» وفى ١٩٥٧ تنجح فى تأسيس وإشهار اتحاد نسائى مصرى باسم «الجمعية النسائية القومية»، لكن الأمن يأمر بحل الجمعية.

وتمضى إنجى فى رحلة النضال وتصبح عضوا فى اللجنة المركزية للحزب، ويأتى عام ١٩٥٩ ليحمل فى أول أيامه أكبر حملة قبض على الشيوعيين، وتهرب إنجى، تستعين بالفن فتتخفى فى زى فلاحة شرقاوية وتعيش بشجاعة وامتنان فى أحضان رفاق فقراء فى إحدى حوارى شبرا، ويقبض عليها ليحكم عليها بالسجن عامين، وبعد السجن تخرج لتعاود النضال فى صفوف المجلس المصرى للسلام ولتصبح واحدة من أشهر فنانات الرسم التشكيلى، ولتعيد طباعة كتبها ذات المذاق الخاص «ثمانون مليون امرأة معنا» والمقدمة لطه حسين، و«نحن النساء المصريات» والمقدمة لعبد الرحمن الرافعى، و«السلام والجلاء» والمقدمة لعزيز فهمى، وهل هى مصادفة أن تحظى كتبها بمقدمات لألمع المثقفين؟.

وتبقى الشعلة القادمة من عالم الأرستقراطية لتضىء عالم الفقراء.. حتى ترحل.